مصطفى فرّوخ رسّام عالمي نذر ريشته لجمال لبنان وتراثه

فنّان نهضويّ تفرّدت أعماله بماضيها وقصصها وألوانها وحتى تعابيرها

جاكلين جابر

فنان لبناني معاصر، رسام مبدع مكتنز بثراء تعبيري وبتنوع في المواضيع والمشاهد، أحبّ الطبيعة منذ صغره فرسمها بحرفية متقنة، خبر حياة البساطة فنقلها رسومات شهد لها التاريخ ولا يزال. هو مصطفى فرّوخ، الرسّام البيروتي بامتياز صاحب مدرسة فنية فريدة أسّست لجعله مدماكاً تأسيسياً في تاريخ الفن الحديث.

تنوّعت اهتمامات فروخ الفنية، فإلى تميّزه في فن التصوير والرسم والكاريكاتور، كان ناقداً فنياً ثاقب البصيرة، ومؤرّخاً فنياً متعمقاً في فنون الغرب والشرق معاً، ثقل مواهبه بالدراسة والاطلاع، حتى استحق عن جدارة لقب الفنان النهضوي المتميز، هو الذي تفرّدت رسومه بماضيها وقصصها وألوانها وحتى تعابيرها.

فاقت رسوم فروخ الألف لوحة بيع بعضها، فيما تربّع بعضها الآخر في بيت ولده هاني، الذي حوّل قسماً من منزله في منطقة المصيطبة متحفاً يضم أعمال الوالد، ما يتيح للزائر ولكل عاشق لفنون الرسم اكتشاف عالم هذا الفنان المبدع وأسراره والذي نقل الواقع المعاش في تلك الحقبة إلى حقيقة مصورة تحمل معاني الحب والقسوة و...

من هو مصطفى فرّوخ؟

ولد فروخ في البسطا التحتا عام ١٩٠١، توفي والده ولم يكن قد تجاوز السادسة، عاش يتيماً مع أخته وأمه التي لطالما حلمت بتحصيل علمي لائق لولدها.

منذ صغره، كان يهوى الرسم، وجلّ ما كان يدهش من حوله هو رسومه المتنوعة للعصافير والوجوه، لكن الفرحة بما تخطه يدا ذاك الصغير لم تكتمل لأن رغبته في إتقان فن الرسم لم تكن مطابقة لرغبات العائلة التي أرسلته إلى «الكتّاب» ليتعلم القرآن ويحفظه، والكتابة والخط والأرقام ... فكان يحصّل دروسه وفق تطلعات العائلة ويثابر على زيارة البحر يومياً ليعود إلى البيت ويرسم سفنه الشراعية والبواخر التي كانت متوقفة في المرفأ.

ولما كبر الشاب الطموح، اصطدمت أحلامه الكبيرة بتحريم التصوير من بعض المشايخ، غير أن بصيص أمل جاءه وبكل اندفاع، إذ استفاد من تشجيع بعض أساتذته ووجهاء بيارته، لا سيما منهم الشيخ مصطفى غلاييني وصلاح اللبابيدي، اللذين أمنا برسومه وفنّه، فشجعاه على إكمال المسيرة في رسم الوجوه والكشف عن الملامح والطبائع، فبدأ العمل بما تيسّر مزوداً موهبة نادرة ومثابرة فعّالة، مقدماً أفضل اللوحات في أهم المحترفات، لعل أبرزها جولي لند، محترف الفنان حبيب سرور الذي كان يحفّزه دائماً على السفر ودراسة اللغتين الإيطالية والفرنسية. في عام ١٩٢٤ وجد فروخ نفسه منساقاً وراء موهبته، فهي في حاجة إلى ثقل أكثر وتحصيل جامعي، فعقد الهمة وتوجّه إلى إيطاليا حيث درس في الأكاديمية الملكية للفنون، وهناك اشترك في عدد من أكبر المعارض الفنية، كما أتيحت له الفرصة لزيارة متاحف روما وقصورها وكنائسها. بعد نيله دبلوم الفنون، قصد باريس ليكمل دراسته على أيدي كبار الفنانين الفرنسيين، وكعادة الفنانين الكبار، عرض فروخ صوره مراراً في معرض باريس الكبير، حيث لا يعرض أي من الصور إلا إذا كانت على مستوى عال من الدقة.

وبعد رحلة إلى إسبانيا درس خلالها فن البناء العربي المزخرف في الأندلس، عاد إلى بلاده وراح يدرّس الفن للراغبين في الجامعة الأميركية، وقد ساهم يومذاك في الحركة الفنية الطالعة، لا بل بات جزءاً من الحركة الثقافية العامة في لبنان.

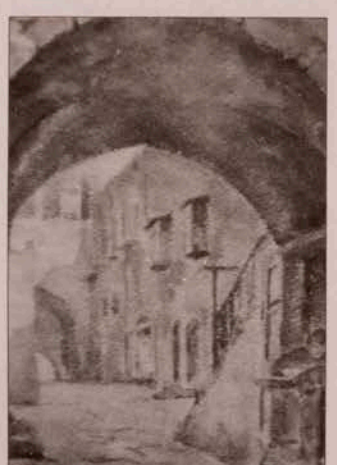

صاحب مذهب فني متميز

خصّص فرّوخ قسماً كبيراً من رسومه للطبيعة التي يعشق، فرسمها في كل الفصول وفي كل الأوقات، حتى باتت لوحاته تعشق ألوانها، كما اهتم برسم البيت اللبناني القديم بقناطره ومياهه وظلّه ونوره، فرسوماته برمّتها تحمل معنى واضحاً تبدأ من الفكرة وتخلص إلى الواقع، حيث الحياة والواقعية.

وكرّس هذا الفنان المتميز قسماً مهماً من إنتاجه الفني للمرأة في مختلف حالاتها ووجوهها حتى المقدسة منها، فانفتاحه الثقافي والديني ساهما في السماح له برسم السيدة العذراء كما يراها هو في مجتمعنا الشرقي، كما رسم القديسة تيريزا ... ورسم والدته في أوقات «صلاة الظهر» مبرهناً شمولية فكرته وكونيتها، في زمن عرف بالانغلاق والتشدد.

في متحف هاني الابن، كثيرة هي الصور المعروضة للوالد ولكل صورة حكاية ولكل حكاية عنوان. ولعل الأبرز بينها تلك التي تعود إلى عام ١٩٢٩ وهي صورة من واقع حقيقي «يتمثل بصورة لمرأة مسلمة، تحدّث المجتمع البيروتي بأكمله بالسفور عن وجهها الرائع والتبختر في الشارع تحمل مظلتها الحمراء، فرسمها فروخ ولم يبعها ولا حتى أعلن عن اسمها، فسرّ المرأة بقي معه، إلى أن تحزّبت عن الموضوع وعرفت أنها من آل نصولي»، يقول هاني، مستذكراً تلك الصور وقصصها ليتابع: «والدي رحمه الله اهتم بالمرأة كونها أساس المجتمع، فرسمها في كل الحالات»، فكانت النقاشة منا نحو صورة لامرأة جميلة بلباس أنيق «إنها المرأة المسيحية، الاريستقراطية من دون عقد اجتماعية ولا دينية، خصوصاً أنه كان من أنصار تحرير المرأة»، يضيف هاني.

يمتاز فن الرسام العالمي فروخ بقوة الخطوط ونقاء الألوان، والبراعة في تأليف الموضوعات التاريخية والقومية. وكالرسامين النهضويين، كثيراً ما استعمل الأبيض الذي يرمز إلى الطهارة، الأزرق للقداسة والأحمر للأريستقراطية الكنسية. ويشير إلى أن والده «استعمل الألوان الطبيعية، ولطالما كانت له عناية خاصة بدراسة روح الطبيعة ونفسية الناس والتأكيد على إبراز الطابع الشخصي واللون المحلي ولاسيما منه ذاك المتعلق بالمشهد الاجتماعي والطبيعي والتاريخي اللبناني». دخل مصطفى فروخ قاموس الفن العالمي عام ١٩٥٠ وعلى رغم ثقافته الغربية، بقي متمسّكاً بهويته اللبنانية العربية وبالثقافة الوطنية التي شغلته طويلاً طويلاً، حتى آخر رمق من حياته صودف في السادس عشر من شباط ١٩٥٧ بعد صراع مع المرض.

لفروخ الكثير من اللوحات الرائعة وخمسة كتب مطبوعة، تركها ذاكرة وتاريخاً للجيل الجديد، مسجّلاً تجربة رائعة وفلسفة لا تشبه إلاّ الحياة. وكما استقبلنا عتبة باب الدار، ودّعنا هاني فروخ بمقولة مؤكدة تشبه فقط حقيقة هؤلاء الفنانين الراقين ذوي البصمات الخاصة في تاريخ الشعوب وحضارتها: «عين في الظل تراقب وعين في النور تسجّل».